﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٩﴾ [يونس: 19]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بين تنزيهِ اللهِ عن مفاسدِ الشّركِ، ودوافعِ الاختلافِ بعد الاتّفاقِ

لَمّا بيَّنَ اللهُ ﷻ ضلالةَ المشركينَ بعبادةِ غيرِ اللهِ، وخَتَمَ بتَنزيهِه وكمالِه، بيَّن أنَّ هذا الدِّينَ الباطلَ حادِثٌ، وبيَّن نزاهتَهُ وكمالَهُ تعالى ببيانِ أنَّ النّاسَ كانوا أوَّلًا مجتمعينَ على طاعتِه، ثمَّ خالفوا أمرَهُ فلم يقطَعْ إحسانَه إليهم؛ بلِ استمرَّ في إمهالِهم مع تَماديهم في سوءِ أعمالِهم ما سبَقَ في علمِه ومضَى به قضاؤُهُ، ولولا أنَّ اللهَ كتبَ في الأزَلِ أنَّه المحسنُ إليكَ يا محمَّد ﷺ برحمةِ أمَّتِكَ بإمهالِهم، لعجَّل بإهلاكِهم بأيسرِ أمرٍ وأسرَعِه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةً﴾: الأُمَّةُ: كلُّ جماعةٍ يجمعُهم أمرٌ ما، إمّا دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، سواءٌ كانَ ذلكَ الأمرُ الجامعُ تسخيرًا أوِ اختيارًا، وجمعُها أُمَم، وتأتي كلمةُ الأُمَّة بمعنَى الصِّنفِ الواحدِ في الضَّلالِ والكفر، قالَ تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: 213]، وتأتي بمعنَى الجماعة، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٌ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ [آل عمران: 104][2].

وقولُه تعالى هنا: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: حُنفاءَ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/93.

(2) ولها معانٍ أخرى بعيدة عن معنى سياق لفظِ الأمّةِ، في الآية المفسّرة هنا، منها: معنَى الدِّين، قالَ تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزّخرف: 22]، ومعنَى حينٍ من الزَّمن، كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45]، ومعنَى الإمام، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتٗا لِّلَّهِ﴾ [النّحل: 120]. ومعنَى الجماعةِ من النّاس، كما في قولِه تعالى: ﴿*لَيۡسُواْ سَوَآءٗۚ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ﴾ [آل عمران: 113]. الزَّجّاج، معاني القرآن: 1/458، والرّاغب، المفردات: (أمّ)، وابن منظور، لسان العرب: (أمم).

متَّفقينَ على ملَّةٍ واحدةٍ موحِّدةٍ لله ﷻ من غيرِ أنْ يختلفوا بينَهم، فصارَ بعضُهم كافرًا، وبقيَ الآخرُ مُؤمِنًا يُخالفُ بعضُهم بعضًا[1].

2) ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾، ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾: الاختلافُ والمخالفةُ: أن يأخُذَ كلُّ واحدٍ طريقًا غيرَ طريقِ الآخرِ في حالِه أو قولِه، والخلافُ أعمُّ منَ الضِّدِّ؛ لأنَّ كلَّ ضدَّيْن مختلفان، وليس كلُّ مختلفين ضدَّيْن، ولمّا كانَ الاختلافُ بينَ النّاس في القولِ يَقتضي التَّنازُعَ استُعيرَ ذلكَ للمنازَعةِ والمجادَلة، قالَ تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ [مريم: 37][2]، ومنه قولُه تعالى: ﴿أُمَّةَ وَٰحِدَةَ فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾؛ أي: تنازَعوا فيما بينَهم فصارَ البعضُ يُخطِّئُ مَن ليس على ملَّتِه ودينِه، ولكنَّ اللّه تعالى أجَّلَ موعدَ القضاءِ بينَهم ﴿فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ منَ التَّنازعِ والتَّناحُرِ إلى يومِ القيامة[3].

3) ﴿سَبَقَتۡ﴾: أَصلُ السَّبْق: التَّقدُّمُ في السَّيْر، نحو: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤﴾ [النّازعات: 4]. والاستباقُ: التَّسابُقُ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ [يوسف: 17]، ثمَّ يُتجوَّزُ به في غيرِه منَ التَّقدُّم، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ [الواقعة: 10]؛ أي: المتقدِّمونَ إلى ثوابِ اللّه وجنَّتِه بالأعمالِ الصّالحة[4]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: نَفذَتْ وتقدَّمتْ بتأجيلِ الحكمِ فيهم إلى يومِ القيامة، أو بأن جعلَ للدُّنيا مُدَّةً، ولكلِّ أُمَّةٍ أجلٌ لا يُقدَّمُ، أو أنَّ اللّه لا يُهلِكُ أمَّةً إلّا بعدَ إقامةِ الحُجَّةِ عليها، وتلك الأقوالُ كلُّها سائغةٌ مقبولة[5].

4) ﴿لَقُضِيَ﴾: قضي: القافُ والضّادُ والحرفُ المعتلُّ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على إحكامِ أمرٍ وإتقانِه وإنفاذِه لجهتِه، والقَضاءُ: الحُكْمُ، قالَ اللّه تعالى: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٖۖ﴾ [طه: 72]؛ أي: اصْنعْ واحْكُم، والقضاءُ: على وجهَيْن: إلهيٌّ وبشريٌّ، قوليٌّ وفعليٌّ؛ فمنَ القولِ الإلهيِّ قولُه تعالى: ﴿*وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]؛ أي: أمرَ بذلك، ومنَ الفعلِ الإلهيِّ قولُه تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فُصّلت: 12] إشارةٌ إلى إيجادِه الإبداعيِّ

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/609.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن المنظور، لسان العرب: (خلف).
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/230، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 4/127، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/609.
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سبق).
(5) الرّاغب، المفردات، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 14/127، والقرطبيّ، الجامع لأحكامِ القرآن: 8/323.

والفراغِ منه، ومنَ القولِ البشريِّ، نحو: قضَى الحاكمُ بكذا، فإنَّ حُكْمَ الحاكم يكونُ بالقول، ومنَ الفعلِ البشريِّ قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ [البقرة: 200][1].

وفي قولِه تعالى: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: مُيِّزَ المُحِقُّ منَ المُبطِل في الدُّنيا، فأُدخِلَ المؤمنونَ الجنَّةَ بأعمالِهم، والكافرون النّارَ بكفرِهم، ولكنَّه سبقَ منَ اللّه الأجلُ، فجعلَ موعدَهم يومَ القيامة[2].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

بيانُ أنّ النّاسَ كانوا على ملّةٍ واحدةٍ ثمّ اختلفوا، والله يُمهِلُ ولا يُهمِلُ

أخبرَ تعالى أنَّ هذا الشِّركَ حادثٌ في النّاسِ كائنٌ بعد أن لم يكنْ، وأنَّ النّاسَ كانوا على دينٍ واحدٍ وهو الإسلام، قالَ ابن عبّاس ﷺ: "كان بين آدمَ ونوحٍ ﷺ عشرةُ قرونٍ كلُّها على الإسلام"[3]، ثمَّ وقعَ الاختلافُ بين النّاسِ، وعُبِدَتِ الأصنامُ والأندادُ والأوثانُ، فبعثَ اللّه تعالى الرُّسُلَ بآياتِه وبيِّناته وحُجَجِه البالغةِ وبراهينِه الدّامغةِ، ولولا أنَّ اللّه لا يُعذِّبُ أحدًا إلّا بعدَ قيامِ الحُجَّةِ عليه، وأنَّه ﷻ قد أجَّلَ الخلقَ إلى أجلٍ معدودٍ لقَضَى بينهم فيما اختلفوا فيه، فأسعَدَ المؤمنينَ وأشقَى الكافرين[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ في: ﴿وَمَا﴾:

الإسلامُ دينُ اللهِ الواحدِ، وهو دينُ الفطرةِ الموحّدةِ

افتتحَ النّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بالواو الدّالّة على الاستئنافِ؛ للدّلالة على متابعةِ بيانِ اللّه للتَّوبيخِ والتَّقريعِ الَّذي سبقَ في قولِه تعالى: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قضي)، والرّاغب، المفردات: (قضى).

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 4/127، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/323.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك: 2/442 عن ابن عبّاس موقوفًا، وتمامه: "كان بين آدمَ ونوحٍ ﷺ عشرةُ قرون كلُّهم على شريعةٍ منَ الحقّ، فاختلفوا على عهد نوحٍ ﷺ، فبعثَ الله ﷻ إليهم نوحًا ﷺ"، وقال الحاكم: "صحيحٌ على شرط الشَّيخَين ولم يُخرِّجاه"، ووافقَه الذَّهبيُّ.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/373 - 374.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: 18]؛ وذلك لأنَّ عبادةَ الأصنامِ واختراعَ ضُلّالِ البشرِ في العقيدةِ السَّليمةِ الَّتي فطرَ اللّه النّاسَ عليها في أوَّلِ النَّشأة[1]، "وأنّ النّاسَ كانوا جميعًا أمّةً واحدةً على فطرة الإسلام، ثمّ وقعَ الاختلافُ بين النّاسِ، وعُبِدَتِ الأصنامُ والأوثانُ والأندادُ، فبعثَ اللّه الرّسلَ بآياتِه وبيّناتِه وحججِه البالغةِ، وبراهينِه الدّامغةِ؛ لهدايتِهم وإزالةِ الاختلافِ بينهم"[2].

دَلالةُ أسلوبِ الحَصرِ:

صيغةُ القَصْرِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ للمبالغةِ في تأكيدِ الخبرِ؛ لأنَّه خبرٌ مُهِمٌّ عجيبٌ، وهو منَ الحِكَمِ العُمرانيَّةِ والحقائقِ التّاريخيَّةِ بالمكانِ الأسْمَى، إذِ القصرُ هنا تأكيدٌ على تأكيدٍ، باعتبارِ اشتمالِه على صيغتي إثباتٍ لِلمُثبَتِ، ونَفيٍ عمّا عداه، فهو أقوى من تأكيدِ ردِّ الإنكارِ، ولذلكَ يُؤذِنُ بردِّ إنكارٍ شديدٍ[3].

المبالغةُ في تأكيدِ الخبرِ تبريزٌ لمضمونِ الآيةِ الكريمةِ

سرُّ استعمالِ لفظِ ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

النّاسُ: اسمُ جمعٍ للبشَرِ، وتعريفُه للاستغراقِ، وهذا يعني عمومَ النّاسِ جميعِهم، فتعيَّنَ أنَّ النّاسَ في معرفةِ اللّه تعالى كانوا أُمَّةً واحدةً متَّفقينَ على التَّوحيد؛ لأنَّ اللّه لَمّا فَطَرَ الإنسانَ فَطَرَه على عقلٍ سليمٍ موافقٍ للواقعِ، ووضعَ في عقلِه الشُّعورَ بخالقٍ، وبأنَّه واحدٌ وضعًا جبلِّيًّا، كما وضعَ الإلهاماتِ في أصنافِ الحيوانِ، وتأيَّدَ ذلكَ بالوَحْيِ لأبي البشرِ، وهو آدمُ عليه السلام، فتعيَّنَ بذلكَ أنَّ المرادَ في هذه الآيةِ، أنَّ النّاسَ كانوا أُمَّةً واحدةً على الحقِّ، وأنَّ المقصودَ مَدحُ تلكَ الحالةِ؛ لأنَّ المقصودَ من هذه الآيةِ بيانُ فسادِ الشِّركِ وإثباتُ

الإشادةُ بما كانَ عليه عمومُ النّاسِ منَ التَّوحيدِ الخالصِ للّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/127.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 1384.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/127.

خطأ مُنتَحِليهِ، بأنَّ سَلَفَهُمُ الأوَّلَ لم يكنْ مِثلَهم في فسادِ العُقولِ، وفي ذلكَ تعظيمٌ للنّاسِ الَّذين كانوا على تلكَ الشّاكلةِ، منَ الفطرةِ السَّليمةِ، وهي فطرةُ التَّوحيدِ الخالصِ للّه، ودفعٌ للنّاس المُخاطَبين أنْ ينتهِجوا نهجَهم، ويَقتدوا بهَدْيِهم[1].

دَلالةُ الجملةِ الاعتراضيّةِ:

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ اعتراضيّةٌ بين قولِه السّابق: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: 18]، وقولِه اللّاحق: ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾، ومُناسبةُ الاعتراضِ قولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ﴾؛ وذلكَ لبيانِ أنَّ عبادةَ الأصنامِ هي مجرَّدُ اختراعٍ بَشَريٍّ، وكذلك صفةُ الشَّفاعةِ الَّتي منحَها المشركونَ لأصنامِهم هي افتراءٌ منهم على اللّه، وكلُّ ذلكَ هو من قَبيلِ الاختلافِ الَّذي ابتدعَه ضُلّالُ البشرِ، وأَحدثوه في العقيدةِ السَّليمةِ الَّتي فطرَ اللّه النّاسَ عليها في أوَّلِ نشأتِهم، وفي ذلك كلِّه توبيخٌ وتقريعٌ لأولئكَ الَّذين شملَهم قولُه تعالى: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[2].

عبادةُ الأصنامِ اختراعٌ من ضُلّالِ البشر، لم يكن له وجودٌ من قبل

دَلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ المنفيّ في: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

أشارَ النّظمُ الجليلُ في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، بنفي ﴿كَانَ﴾ وأداةِ الحصرِ ﴿إِلَّآ﴾ إلى أنَّ النّاسَ كانوا على طريقةٍ واحدةٍ وملَّةٍ واحدةٍ، وهي طريقةُ وملَّةُ التَّوحيدِ الخالصِ للّه، وهي الفطرةُ الَّتي فطرَ اللّه النّاسَ عليها، فالتَّوحيدُ والإسلامُ مِلَّةٌ قديمةٌ وشِرعةٌ تليدةٌ أجمعَ عليها النّاسُ قاطبةً[3].

جَبَلَ الله النّاسَ على التَّوحيدِ الخالصِ منذُ بدايةِ خلقِ أبيهم آدمَ

دَلالةُ الفاءِ في: ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾:

جاءتِ الفاءُ العاطفةُ الَّتي تفيدُ التَّعقيبَ لبيانِ أنَّ بعضَ النّاسِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/128.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/127.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/646.

كَفرَ وثَبَتَ آخرون على ما هُم عليه، فخالفَ كلٌّ منَ الفريقينِ الآخرَ، لا أنَّ كلًّا منهما أَحدَثَ مِلَّةً على حِدَةٍ من مِلَلِ الكفرِ مخالفةً لمِلَّةِ الآخرِ، فإنَّ الكلامَ ليس في ذلكَ الاختلافِ إذْ كلٌّ منهما مُبطِلٌ حينئذٍ، فلا يُتصوَّرُ أنْ يُقضَى بينَهما بإبقاءِ المُحقِّ وإهلاكِ المُبطِلِ، ولذلكَ فإنَّ الفاءَ التَّعقيبيَّةَ هنا لا تُنافي امتدادَ زمانِ الاتِّفاقِ، إذِ المرادُ بيانُ وقوعِ الاختلافِ عَقيبَ انْصرامِ مُدَّةِ الاتِّفاقِ لا عَقيبَ حدوثِ الاتِّفاقِ[1].

وقوعُ الاختلافِ بينَ النّاسِ عقيبَ انصرامِ مدَّةِ اتِّفاقِهم على التَّوحيد

علّةُ ذكرِ الاختلافِ بعدَ الوحدةِ في: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾:

دلَّ الحَصرُ - كما تقدَّمَ آنفًا - على أنَّ النّاسَ كانوا على ملَّةِ التَّوحيدِ، وأنَّهم في وحدةٍ اعتقاديَّةٍ قائمةٍ فيما بينَهم، ولذلكَ عبَّرَ عنِ التَّفرُّقِ الطّارئِ عليها بالاختلافِ المُشعِرِ بالمذمَّةِ والمعقَّبِ بالتَّخويفِ في قولِه: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ﴾؛ وذلكَ أنَّ الشِّركَ وفروعَهُ جَهالاتٌ ابْتدعَها الغواةُ الضّالّونَ المُضِلّون خلافًا للجمهورِ وشقًّا لعصا الجماعةِ.

الشِّركُ غوايةٌ مُستحدَثةٌ، فرّقَتِ النّاسَ أوزاعًا وأشتاتًا

وأمّا حملُ اتّخاذِهم على الاتِّفاقِ على الضَّلالِ عند الفَترةِ، واختلافِهم على ما كانَ منهم منَ الاتِّباعِ والإصرارِ فيما لا احتمالَ له؛ أي: وما كانَ النّاسُ كافَّةً من أوَّلِ الأمرِ إلّا مُتَّفقينَ على الحقِّ والتَّوحيدِ من غيرِ اختلافٍ، وذلك من عهدِ آدمَ عليه السلام إلى عهدِ نوحٍ عليه السلام[2].

سرُّ إيثارِ التّعبيرِ بـ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾:

آثرَ النّظمُ المعجزُ التّعبيرَ بقولِه جلّ شأنُه: ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ لما فيه من تشنيعٍ على عبادةِ الأصنامِ، إذ كيف يعبدُ هؤلاءِ المشركونَ الأصنامَ، والنّاسُ جميعُهم فيما سَلَف على التَّوحيدِ الخالصِ للّه، ولمّا كان الاختلافُ بسببِ الكفرِ؛ أي: كان النّاسُ على الإسلامِ، فحصلَتِ

الاختلافُ تفرّقٌ طارئٌ في التَّوحيد، مُشعِرٌ بالمذمَّةِ والتَّقريعِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/647.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/646، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/127.

النُّفرةُ من اتِّباع غيرِ ما كانَ النّاسُ عليه، وترتَّبَ على ذلك الوعيدُ، فدَلَّ على أنَّ هذا الاختلافَ حصلَ بعد الوحدةِ الاعتقاديَّةِ، ولا أدلَّ على هذا الوضعِ القائمِ من كلمةِ (اخْتلفوا)؛ لأنَّه تعبيرٌ عنِ التَّفرُّقِ الطّارئِ على وحدةِ الاعتقادِ القائمةِ آنذاك، باعتبارِ الاختلافِ الّذي يُشعرُ السّامعَ بالمذمَّةِ والتَّقريعِ لما حدَث، فهو في أمرٍ جَلَلٍ مُتعلِّقٍ بعقيدةٍ ودينٍ - الأصلُ فيه الاجتماعُ وعدمُ الاختلاف - لا بعاداتٍ وتقاليدَ وأمورٍ فرعيَّةٍ، قد يتفرَّقُ فيها النّاسُ ويتنازعون، ولمّا كانَ ذلك كذلك عقَّبَ بيانُ اللّه الاختلافَ بالتَّخويفِ المنذرِ بالعقوبةِ الصّارمةِ، بقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1].

الاستغناءُ بالضَّميرِ: ﴿فَٱخْتَلَفُواْ﴾:

استغنيَ عنِ الضَّميرِ لدَلالةِ السِّياقِ عليه، وتهوينِ شأنِ المخالفينَ للحقِّ

الأصلُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ﴾ أن يُقالَ: كانَ النّاسُ أُمَّةً واحدةً فاختلفَ النّاسُ، أو فاختلفَ هؤلاءِ النّاس، لكنَّ بيانَ اللّه استغنى عن ذاكَ الظّاهرِ لدَلالةِ السِّياقِ عليه، فاكتُفيَ به عن إعادةِ الضَّمير، فلم يُذكَرِ اختصارًا[2]، فلم يُظهرِ الاسمَ؛ لأنَّ القضيَّةَ مُتعلِّقةٌ بأمرٍ مُهمٍّ، وهو أمرُ الأُمَّةِ ودينُها الّذي قامَت عليه، والاختلافُ أمرٌ طارئٌ مُحدَثٌ، مخالفٌ لما كانَ عليه سَلفُ عمومِ النّاسِ، فلم يكرِّر ذكرَ النّاسِ المختلفينَ رعايةً لحقِّ المتقدِّمينَ، ورفعًا لشأنِهم، وتهوينًا لشأنِ مَنِ اختلفوا في دينِ اللّه، واخترَعوا الضَّلالاتِ.

مفهومُ لفظِ ﴿أُمَّةً﴾:

الشِّركُ طارئٌ على الأُمَّةِ، والأصلُ قيامُها على التَّوحيد

الأُمَّةُ: الجماعةُ العظيمةُ الَّتي لها حالٌ واحدٌ في شيءٍ ما. والمرادُ هنا في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: أُمَّةٌ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/229، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/28 - 29، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/137.

(2) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 139.

واحدةٌ في الدِّين، والسِّياقُ يدُلُّ على أنَّ المرادَ أنَّها واحدةٌ في الدِّينِ الحقِّ، وهو التَّوحيدُ؛ لأنَّ الحقَّ هو الَّذي يُمكنُ اتِّفاقُ البشرِ عليه؛ لأنَّه ناشئٌ عن سلامةِ الاعتقادِ منَ الضَّلالِ والتَّحريفِ، والإنسانُ أُنشِئَ على فطرةٍ سليمةٍ كاملةٍ بعيدةٍ عنِ التَّكلُّفِ والتَّعقيدِ، وإنَّما يُتَصَوَّرُ ذلكَ في معرفةِ اللّه تعالى دونَ الأعمالِ؛ لأنَّها قد تختلفُ باختلافِ الحاجاتِ، فإذا جازَ أنْ يحدُثَ في البشرِ الضَّلالُ والخطأُ فلا يكونُ الضَّلالُ عامًّا على عقولِهم، فتعيَّن أنَّ النّاسَ في معرفةِ اللّه تعالى كانوا أُمَّةً واحدةً متَّفقينَ على التَّوحيدِ؛ لأنَّ اللّه تعالى لمّا فَطَرَ الإنسانَ فطرَه على عقلٍ سليمٍ موافقٍ للواقعِ، ووضعَ في عقلِهِ الشُّعورَ بخالقٍ، وبأنَّه واحدٌ وضعًا جِبلِّيًّا، كما وضعَ الإلهاماتِ في أصنافِ الحيوانِ، وتأيَّدَ ذلك بالوَحْيِ لأبي البشرِ وهو آدمُ ﷺ، ثمَّ إنَّ البشرَ أدخَلوا على عقولِهمُ الاختلافَ البعيدَ عنِ الحقِّ بسببِ الاختلافِ الباطلِ والتَّخيُّلِ والأوهامِ بالأَقيسَةِ الفاسدةِ، فتعيَّنَ بذلكَ أنَّ المرادَ في هذه الآيةِ، بكونِ النّاسِ أُمَّةً واحدةً، الوحدةُ في الحقِّ، وأنَّ المقصودَ مدحُ تلكَ الحالةِ؛ لأنَّ المقصودَ من صدرِ هذه الآيةِ على وَجهِ الخُصوصِ بيانُ فسادِ الشِّركِ وإثباتُ خطأِ مُنتَحِليه بأنَّ سَلَفَهُمُ الأوَّلَ لم يكنْ مِثْلَهم في فسادِ العُقولِ، ووقوعُه عقبَ ذِكْرِ مَن يعبُدونَ من دونِ اللّه أصنافًا لا تضُرُّهم ولا تنفَعُهم، يدُلُّ على أنَّهم المقصودُ بالإبطالِ، وهو إبطالُ زعمِ مَنْ يزعُمُ غيرَ ذلك[1].

دَلالةُ التّعبيرِ بالجملةِ الشّرطيّةِ في: ﴿وَلَوْلَا﴾:

لولا لطفُ اللّه بإمهالِ البشرِ لعمَّهم بعذابٍ مُستطِرٍ

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بالجملةِ الشّرطيّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾؛ للدّلالة على أنَّ ذلكَ الاختلافَ مَذمومٌ، وأنَّه لولا أنَّ اللّه أرادَ إمهالَ البشرِ إلى يومِ الجزاءِ لَأراهُم وَجهَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/128.

الفَصلِ في اختلافِهم باستئصالِ المُبطِلِ وإبقاءِ المُحِقِّ[1]، فعلّقَ انتفاءَ الاستئصالِ والقضاءَ عليهم في الدّنيا بوجودِ عهدٍ سابقٍ وضعَه الله تعالى، وذلك يؤكّدُ عدمَ وقوعِ الاستئصالِ في مستقبلِ الأيّامِ.

دَلالةُ حرفِ الشَّرطِ غير الجازمِ في: ﴿وَلَوْلَا﴾:

لولا إمهالُ الله البشرَ ليومِ المعاد لفصلَ بينَهم في الدُّنيا

حرفُ الشَّرط ﴿وَلَوْلَا﴾ هو حرفُ امتناعٍ لوجود، فلولا أنَّ الله أرادَ إمهالَ البشرِ إلى يومِ الجزاءِ لَأَراهم وجهَ الفَصلِ في اختلافِهم، باستئصالِ المُبطِلِ، وإبقاءِ المحقِّ[2]، "ويجوز لقَضَى بينهم؛ أي: لولا أنَّ الله جلَّ وعزَّ، جعل لهم أجلاً في القضاءِ بينهم، لفَصَلَ بينهم في وقتِ اختلافِهم"[3].

دَلالةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿كَلِمَةٌ﴾:

الكلمةُ هي القضاءُ والحكمُ، الّذي يفصلُ الله به بين العبادِ

قولُه: ﴿كَلِمَةٌ﴾ هنا في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ تعني: تأخيرَ القضاءِ والحُكمِ بينَهم، أو بتأخيرِ العذابِ الفاصلِ بينَهم إلى يومِ القيامة؛ فإنَّه يومُ الفَصْل، أو أنَّ المرادَ بالكلمةِ قضاؤُه وتقديرُه لبني آدمَ بالآجالِ المؤقَّتة[4]، "قد اقتضَت مشيئةُ الله أن يُمهلَهم جميعًا الى أجَلٍ يستوفونَه، وسبقَت كلمتُه بذلك لحكمةٍ يريدُها، ولولا ذلك لعجَّلَ لهم الهلاكَ، بسبب الخلافِ الّذي وقعوا فيه"[5].

توجيهُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿سَبَقَتْ﴾:

اقتضَتْ سنَّةُ الله تأجيلَ الثَّوابِ والعقابِ ليومِ الحسابِ

المرادُ بالسّبقِ في قوله: ﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ أنّها سبقَت في قضاءِ الله وتقديرِه بأنْ لا يُعجِّلَ عذابَ أُمَّةٍ قبلَ بيانِ دينِه ورسالتِه مع أنبيائِه ورُسُلِه، فيمدَّ بني آدمَ بالآجالِ المؤقَّتة[6]، ويحتملُ أن يُرادَ: أنَّ الله

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/129.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/129.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/12.
(4) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/111، والنَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 2/13، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/647.
(5) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/185.
(6) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/111.

أَبقى تكليفَه على عبادِه، وإنْ كانوا به كافرين؛ لأنَّه لو أهلَكهم لكانَ ذلك سببًا لزوالِ التَّكليفِ، فأبقاهم، وأخَّرَ عقابَهم إلى يومِ القيامة، وفي ذلكَ تصبيرٌ للمؤمنين على احتمالِ المكارِه من قِبَلِ الكافرينَ والظّالمينَ، ويحتملُ أن يُرادَ: أنَّ اللّه لا يُعاجِلُ العُصاةَ بالعقوبةِ إنعامًا عليهم؛ لَقُضِيَ بينهم في اختلافِهم، بما يمتازُ به المُحِقُّ منَ المُبطِلِ، والمُصيبُ منَ المُخطِئِ، ويحتملُ أنَّ المرادَ هو أنَّه لَمّا كانتْ رحمةُ اللّه غالبةً اقتضَتْ تلكَ الرَّحمةُ الغالبَةُ إسْبالَ السَّترِ على الجاهلِ الضّالِّ، وإمهالَه إلى وقتِ الحسابِ[1].

دَلالةُ تجاورِ فعل ماضٍ مع مضارعٍ: ﴿لَقُضِيَ﴾ ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾:

جاءَ ﴿لَقُضِيَ﴾ بصيغةِ الماضي، و ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ بصيغةِ المضارعِ الَّذي يفيدُ الاستقبالَ؛ ليُفيدا معًا حكايةَ الحالِ الماضية، وللدَّلالةِ على الاستمرار[2]، والدّلالةُ يتقابلُ فيها معنى فعليّة القضاءِ الافتراضيّ المُحتَملِ في سياق الشّرطِ بقوله: ﴿لَقُضِيَ﴾، ومعنى الاختلاف بين النّاسِ، الّذي هو مَلمَحٌ واقعيٌّ معيشٌ، تشهدُهُ البشريّةُ على مدار الزّمانِ بقوله: ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾، "وفيه وجهان: أحدهما: ولولا كلمةٌ سبقَت من ربِّكَ في تأجيلِهم إلى يوم القيامةِ لقُضِي بينَهم من تعجيلِ العذابِ في الدّنيا، قالَهُ السُّدِّيُّ. الثّاني: ولولا كلمةٌ سبقَت من ربِّكَ في أن لا يُعاجِلَ العُصاةَ إنعاماً منه يَبتليهم به، لقَضَى بينَهم فيما فيه يَختَلفونَ، بأن يَضطرَّهُم إلى مَعرفَةِ المُحِقِّ مِنَ المُبطِلِ"[3].

تجاورُ الفعلَينِ هنا لحكايةِ الحالِ الماضيةِ، وللدَّلالةِ على الاستمرار

دَلالةُ الجارِّ والمجرورِ: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾، جاءَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ تعبيرًا عن إحسانِ اللّه وفضلِه ورحمتِه بأُمَّةِ نبيِّه محمَّدٍ ﷺ

مصدرُ الرَّحمةِ والإحسانِ بالعبادِ هو الرَّبُّ الرَّحمنُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/229 - 230، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/127، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/323.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/647.

(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/429.

في إمهالِهم، ودلّت ﴿مِن﴾ الابتدائيّة على أنّ مصدرَ تلك الكلمةِ أنّها ابتدأَت منَ اللّه تعالى لبيانِ محضِ رحمتِهِ، وأنّها لم تكن مفروضةً من أحدٍ، بل اللّه تعالى تفضّلًا منه وكرمًا ابتدأَ أن وضعَ على نفسِهِ أن لا يُعجِّلَ العقابَ لأحدٍ.

دلالةُ الإضافةِ: ﴿رَّبِّكَ﴾:

المحسنُ إليك هو مَن أرجأَ العقابَ برحمتِهِ

أضافَ النّظمُ الجليلُ لفظَ الرّبوبيّةِ إلى الضّميرِ العائدِ على النّبيِّ ﷺ بيانًا لعظيمِ شأنِه، وبيان أنّ ذلك من رحمةِ اللّه بعبادِه عمومًا في إرجاءِ عذابِهم بعد مَنحِهمُ الإمهالَ؛ ليعودوا إلى اللّه بالتّوبةِ قبلَ حلولِ الآجالِ[1].

نكتةُ بناءِ الفعلِ ﴿لَقُضِيَ﴾ لما لم يُسمَّ فاعلُه:

قضاءُ اللّه مُبْرَمٌ، وسُنَّتُه في خَلْقِه باقيةٌ، ورحمتُه بهم جاريةٌ

في قولِه تعالى: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ جاءَ الفعلُ ﴿لَقُضِيَ﴾ مَبنيًّا على ما لم يُسمَّ فاعلُه، تعويلًا على ما سبقَ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾، ولبيانِ أنَّ هذا الأمرَ الَّذي دَعَوْا إليه أمرٌ طارئٌ حادثٌ، فيكونُ بحيث يُتوقَّفُ فيه للنَّظرِ في عواقبِه، والتَّأمُّلِ في مَصادرِهِ ومَوارِدِهِ، بل هو مع ظهورِ دلائلِهِ واستقامةِ مناهجِهِ وصحَّةِ مذاهبِهِ، وإلقاءِ الفِطَرِ أَزِمَّةَ الانْقيادِ إليه، أصلُ ما كانَ العبادُ عليه، وما هم فيه الآن، هو الطّارئُ الحادثُ مع ظُهورِ فسادِهِ ووضوحِ سَقَمِهِ، وقضاءُ اللّه السّابقُ فيما بيَّنَه لنا هنا مُبْرَمٌ، وهو مع كونِه مُبرَمًا لكنَّ رحمةَ اللّه بعبادِه فيه واضحةٌ وأَلْطافَهُ فيهم جَليَّةٌ[2]، فلمّا ذكرَ لفظَ الرّبوبيّةِ المُشعِرَ بالإحسانِ مع إضافتِهِ إلى ضميرِ النّبيِّ ﷺ بنى الفعلَ الدّالَّ على نقيضِ الإحسانِ للمفعولِ إعراضًا عن ذكرِ مَن سبقَ ذكرُهُ بالإحسانِ أن يُعادَ ذكرُهُ في سياقِ العقابِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/93.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/93.

علَّةُ ورودِ اسمِ الموصولِ (ما):

تأكيدُ وجودِ الاختلافِ، والإيماءُ إلى إبقاءِ الحقِّ وإزهاقِ الباطل

أفادَ اسمُ الموصولِ (ما) في قوله تعالى: ﴿فِيمَا فِيهِ﴾ تأكيدَ وَصفِ ما هم عليه منَ الاختلاف، والتَّنبيهَ على أنَّه لا بدَّ من تمييزِ الحقِّ منَ الباطلِ، وذلك بإبقاءِ الحقِّ وأهلِه، وإهلاكِ الباطلِ وأهلِه[1]، كما أنّه يفيدُ الدّلالةَ على أنّ الحكمَ كائنٌ في عمومِ ما اختلفوا فيه؛ فالكتابُ لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها.

دَلالةُ ردِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ: ﴿فَٱخْتَلَفُواْ﴾، ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾:

تأكيدُ اختلافِ النّاسِ في الدِّين، وتأكيدُ حسابِهم يومَ الدِّين

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ﴾ جاءَ في نهايةِ هذا الشَّطرِ الفعلُ ﴿فَٱخْتَلَفُواْ﴾، وفي نهايةِ الآيةِ جاءَ في قولِه تعالى: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ الفعلُ ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ وهذا ما يسمَّى في علم البديع بردِّ العَجُزِ على الصَّدرِ[2]، وهو منَ المحسِّناتِ اللَّفظيَّةِ الَّتي تُعطي المعنَى قوَّةً وتأكيدًا، وهذه هي الدَّلالةُ هنا: في أنَّ اختلافَ النّاسِ بعدَ أن كانوا رِدْحًا طويلًا منَ الزَّمنِ على عقيدةِ التَّوحيدِ الخالصِ للّه اختلفوا، فمنهم مَن بقيَ على إيمانِه، ومنهم مَن كَفرَ، وهذا لنْ يبقى عندَ اللّه بلا حسابٍ، ولكنَّ اللّه لنْ يحاسبَهم على اختلافِهم ذاك في الدُّنيا، وَفقَ حكمتِه تعالى؛ بل أجَّل حسابَهم فيما كانوا فيه يختلفونَ إلى يومِ القيامة، فالعلَّةُ في هذا الحسابِ هو اختلافُهم السّابقُ فيما بينَهم، فأكَّدَ بيانُ اللّه أنَّه كما حصَلَ الاختلافُ في الدِّين ما بين مُؤمنٍ وكافر، فسيُعقَدُ الحسابُ للَّذين اختلفوا، بتمييزِ أهلِ الحقِّ من أهلِ الباطلِ،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/647.

(2) وهو من فنونِ البديعِ، ويُسمَّى (التَّصدير)، وهو ثلاثةُ أقسامٍ: الأوَّل: ما يوافقُ آخرُ كلمةٍ فيه آخرَ كلمةٍ في نصفِه، وهو كما في الآية في المتن، والثّاني: ما يوافقُ آخرُ كلمةٍ فيه أوَّلَ كلمةٍ في نصفِه الأوَّل، كما في قولِ الشّاعر:

سَرِيعٌ إِلَى ابنِ العَمِّ يَشتُمُ عِرْضَهُ *** وَلَيسَ إِلَى داعِي النَّدَى بِسَرِيعٍ.

والثّالثُ: ما يوافقُ آخرُ كلمةٍ فيه بعضَ ما فيه، كما في قولِه تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: 21]. يُنظر: ابن المعتزّ، البديع، ص: 47.

فَيُقضَى بينَهم يومَ القيامةِ، فينالُ أهلُ الحقِّ النَّعيمَ المقيمَ، وأهلُ الباطلِ العذابَ الأليمَ[1].

دَلالةُ توسُّطِ الجارِّ والمجرورِ بينَ الاسمِ الموصولِ وصلتِه: ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾:

أهمّيّةُ ما وقعَ فيه الاختلافُ، ومراعاةُ الفاصلة

في قولِه تعالى: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وردَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِيهِ﴾ مُتوسِّطًا بين الاسمِ الموصولِ (ما) وصلتِه ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾، والأصلُ أن يقولَ: فيما يختلفونَ فيه، وهذا التَّوسُّطُ وتقديمُ ما حقَّه التَّأخيرُ يشيرُ إلى أمرَين: الأوَّلُ: بيانُ أهمّيَّةِ ما وقعَ فيه الاختلاف، فهو اختلافٌ في الدِّين، ما بين إيمانٍ وكُفرٍ. والثّاني: مراعاةُ الفاصلةِ القرآنيَّةِ[2]، وذلك اهتمامًا بموضوعِ الاختلافِ؛ لأنّه السّببُ في الحكمِ بينهم، فقدَّمَ ما سبّبَ الاختلافَ على فعلِ الاختلافِ.

التّشابهُ اللّفظيُّ بين آيتي سورة يونس، وسورة الشّورى:

تأكيدُ سبقِ كلمةِ اللهِ بتأجيلِ العقابِ مع اختلافٍ في بعضِ جزئيّاتِ المعنى

وردَ تشابهٌ في النّظمِ بينَ قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ [الشّورى: 14]، فما وجه ذلك التّشابه؟

والجواب: في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ جاءَ في [الشّورى: 14] بزيادةِ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وزادَ فيها أيضًا ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾؛ لأنَّ المعنَى تفرّقُ قولِ اليهودِ في التَّوراة، وتفرَّقُ قولِ الكافرين في القرآن، فكانَ تقديرُ الكلام: ولولا كلمةٌ سَبَقتْ من ربِّكَ بتأخُّرِ العذابِ إلى يومِ الجزاءِ لقُضِيَ بينَهم بإنزالِ العذابِ عليهم.

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/647.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/129.

وخُصَّتْ في الشّورى بزيادةِ قولِه: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ لأنَّه ذكرَ البدايةَ في أوَّلِ الآية، وهو ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾، وهو مبدأُ كُفرِهم، فَحَسُنَ ذكرُ النِّهايةِ الَّتي أُمهِلوا إليها ليكونَ محدودًا منَ الطَّرَفَيْن[1]. وفي الآيةِ هنا [يونس: 19] وردَ قولُه تعالى: ﴿فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ وفي [الزُّمَر: 3] وردَ قولُه تعالى: ﴿فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۖ﴾ بزيادةِ (هم)؛ لأنَّ في هذه السّورةِ تقدَّمَ ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ فاكتُفيَ به عن إعادةِ الضَّميرِ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأُمَّة والقَوْم:

الأُمَّةُ: كلُّ جماعةٍ يجمعُهم أمرٌ ما، إمّا دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، سواءٌ كان ذلك الأمرُ الجامع تسخيرًا أو اختيارًا، وجمعُها أُمَمٌ، قالَ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ [الأنعام: 38][3]، والقومُ: همُ الرِّجالُ الَّذينَ يقومُ بعضُهم مع بعضٍ في الأمور، ولا يقعُ في النِّساءِ إلّا على معنَى التَّبَع، كما قالَ ﷻ: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥﴾ [الشُّعراء: 105]، والمرادُ: الرِّجالُ، والنِّساءُ تَبَعٌ لهم[4]. فجاءَ التّعبيرُ في الآية بلفظِ الأمّةِ؛ لأنّه يريدُ الأمّةَ الّتي يجمعُها أمرُ الدّينِ، وليس المرادُ مجموعةً منَ الرّجال يقومون مع بعض.

الأُمَّـةُ جماعةٌ يجمعُهم رابطٌ، والقومُ الرِّجالُ يقومُ بعضُهم مع بعضٍ

الاخْتلاف والخِلاف:

الاختلافُ: أنْ يأخذَ كلُّ واحدٍ طريقًا غيرَ طريقِ الآخَرِ، في حالِه أو في قولِه، ويكون في الرّأيِ والفهمِ والذّوقِ، والاختلافُ بين النّاسِ

الاخـتـلافُ المـخـالَـفـةُ في الوجهة أو الرّأي قـولًا وحـالًا، والـخِـلافُ أعـمُّ منَ الاختلافِ

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 222.
(2) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 139.
(3) الرّاغب، المفردات: (أمّ)، وابن منظور، لسان العرب: (أمم).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 427، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).

في القولِ يقتضي التَّنازُعَ، ومنَ الاختلافِ ما ليس بمذمومٍ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ [المؤمنون: 80]، فهذا الضَّربُ منَ الاختلافِ ليس كما في البشر، فهو يكونُ على سَنَنٍ واحدٍ، وهو دالٌّ على علمِ فاعلِه، والاختلافُ قد يكونُ في المذاهبِ وفي الأجناسِ؛ فالاختلافُ في المذاهب: هو ذهابُ أحدِ الخَصمَين إلى خلافِ ما ذهبَ إليه الآخرُ، والاختلافُ في الأجناسِ: امتناعُ أحدِ الشَّيئين من أن يَسُدَّ مَسَدَّ الآخَر، ويجوزُ أنْ يقعَ الاختلافُ بين فريقين، وكلاهُما مُبطِلٌ كاختلافِ اليهودِ والنَّصارى في المسيح[1]. والخِلافُ أعمُّ منَ الضِّدِّ؛ لأنَّ كلَّ ضِدَّيْن مختلفان، وليس كلُّ مختلِفَين ضدَّين، فهو أعمُّ منَ الاختلاف. والخِلافُ: هو المخالفة، وقولُه تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التَّوبة: 81]؛ أي: مخالفةَ رسولِ اللهِ ﷺ، والاختلافُ قد يؤدِّي إلى الخِلافِ؛ أي: المنازعةِ والمجادَلةِ ولذلكَ استُعيرَ لهما، كما قالَ تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ [مريم: 37] فوقعَ بينَهمُ الخلافُ والتَّخاصُمُ[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 28 - 128، والرّاغب، المفردات: (خلف). ص 295.
(2) الرّاغب، المفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (خلف).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»